... وذات مساء

في مثل هذه الساعة من النهار ، حين يدب الوهن في أشعة شمس أغسطس الحارقة ، فتتراجع امام الظل ، لتصبح مجرد بقع شاحبة صفراء تنكمش وترتجف اعلى العمارات ، وعند قمم الاشجار، تبدأ الحياة تفيق من اغماءتها ، ويبدأ الناس يسيرون بخطوات ثابتة لا يطاردهم هجير ، في شوارع العمرانية ، تلك الضاحية الهادئة البعيدة عن ادخنة المصانع ، وضجيج المواصلات ..

كل يوم ، وفي مثل هذه الساعة ، كانت الحياة تسير سيرها المألوف في شقة مواطننا محمد أفندي كامل ، فها هي دقات الساعة تتسرب الى أذنه من راديو بعيد ، وهذا هو يتثاءب ، ثم يمد يده في عجلة بعد ان تذكر امرا هاما ويدير زر الراديو الموضوع بجانب سريره ليسمع نشرة الاخبار .. وعندما أدرك بعد سماع الموجز ان ليس ثمة جديد ذو بال ، امتدت اصابعه بتراخ لتعبث بالازرار ، وعلى غير انتظار ، وكما يحدث في الحلم ، تدفق صوت عبد الوهاب القديم يتغنى بالكرنك ، الاغنية التي يتوق لسماعها من زمان ، ومالأت الموسيقى الشجية كل البيت ، سمع باب الحجرة المقابلة يفتح . لا بد انها هالة . وكما توقع ، كان طرق رقيق على باب حجرته . تعمد الا يفتح والا يرد . وزاد الطرق رقة فواصل الصمت وهو يكتم ضحكته ، وسمع صوت هالة بلثغته الحبية يؤكد « انت مكار ياني بابا » وانها ليست عبيطة لتظنه نائما . وعندما ضاقت بمكره شبت لتمسك بالاكرة ـ لا بد انها فعلت ذلك ـ ادارتها بالفعل وانفرج الباب واندفعت صائحة لتفاجأ بصوته هو :

ـ بخ !

تراجعت تصرخ فتلقفها بين ذراعيه ، قبلها واخذ يداعب ضفيرتها الناعمة ويبدي اعجابه بالوردة الجميلة في شعرها ، وبفستانها اللطيف ، احسن فستان في الدنيا ، وكانت ضحكتها ارق من انغام الكرنك .. اجلسها على السرير ، وقام ليعطيها « مفاجأة » كل يوم . فرحت كثيرا بقطعة التوفي وانشغلت بورقتها الملونة .. فوجيء والدها بصراخها فعاد من عالم الكرنك ليسمع ضحكات أيمن المنتصرة الشامتة في الصالة. جرى خلفه .

ـ هات يا ولد . هات يا شقي .

راوغه أيمن عالي الضحكات ، فنادى زوجته وهي خارجة من حجرة الاولاد :

ـ امسكي يا نعيمة .

وسقط أيمن في الفخ ، واعاد في استسلام قطعة التوفي . كان هو الاخر بملابس الخروج ، وكافأه ابوه على سلوكه « الطيب » بقطعة أكبر ، اخذ يرفعها في الخفاء امام عين هالة ويخرج لها لسانه . أشهدت والديها على مضايقاته ، ولما لم يرعو ، جرت خلفه وهي تحلف ان تأخذها منه لتؤدبه ، وجرى امامها في الصالة يراوغها ، وعلت ضحكات الاثنين وصرخاتهما مختلطة بصوت عبد الوهاب ، وتنبهت الزوجة الام انها لم تحي زوجها فتداركت تسأل ان كان قد نام جيدا ام ان ضجة الاولاد قد .. واجاب بانه نام جيدا ، وكان أثر النوم اللذيذ في جفنيه ما يزال ، وموسيقى عبد الوهاب تلعب بمشاعره ، وعندما فتحت زوجته النافذة ملأ نسيم المغرب المنعش حجرته . تنفس ملء رئتيه واقترب من الشباك وقد عرى جلباب نومه الواسع صدره ، واطل من الشرفة يطلب المزيد من النسيم المنعش بعد يوم من جهنم أغسطس . انتشى بمنظر الاوراق الخضراء وهي بعد طول ركود تهتز، وبقع الشمس وهي ترتجف بشدة لتتلاشى من فوق ذؤابات الشجر ، وبالحركة النشطة في الشارع الهادىء .. ضاحية جميلة وهادئة ، انعم الله عليه بسكناها بعد شقاء طال في حواري الجيزة . سيجر كرسيا ويجلس يرى مباهج امسيات الصيف مطلا من الشرفة كما كان يحلم أيام زمان ، ولا داعي للخروج اليوم ، فما الذها من سهرة يقضيها بين الاولاد . كانت الوان ملابس السيدات ومنظر السيدات في الصيف عموما يجذب انتباهه برغم أنه ليس زائغ العين . وتعلق بصره بثلاث منهن يخطرن كما لو كان على انغام الكرنك .

ـ اعمل لك الشاي ؟

عاد اليها وابتسم . أجمل سيدة على الاطلاق . وبنظراته دغدغ جسمها البض وشعرها الفاحم المنسدل على كتفيها المستديرين ، وهم بان يقبلها لكن اندفاع الطفلين الى داخل الحجرة متصايحين افسد الخلوة . كررت سؤالها ، لكن أثر الحمام الرطب على جسمها البض جعله ـ هو الاخر يهفو الى دش بارد ، فطلب اليها ان تعد له الغيار . دش بارد بعد هذا القيظ ، ثم تجلس في هذه الشرفة وهي والاولاد من حولك ، وعلى انغام الراديو ترشف من كوب الشاي بالنعناع . لا داعي للخروج اليوم وسوف اقنعها بذلك . ومن هنا سيتأمل الضاحية الهادئة ويستطيع على ضوء مصباح الشرفة ان يقرأ صحيفة الصباح .

وفي الصالة يلعب الاولاد ثم تجلس هالة على رجل وايمن على الرجل الاخرى وبعد قليل ينامان ، ويصبح السهر معها متعة . أثر الحمام على جسمها البض يأسر نظراته وهي تروح وتجيء .. يجب الا نصر على الخروج ، والا فما نصيبها من حاسة الانساء السادسة كما يقولون .. لكنها في الحقيقة مطيعة وطيبة ، ومعك على الزمن ترضى بالقليل. يا محمد يا كامل انت ملك . وزوجتك هبة من الله . لا بد ان تفكر جديا في اقتناء التليفزيون الذي ألمحت اليه اول امس اكراما لخاطرها .

ـ الغيار يا محمد .

أخذه شاكرا . وضعه شاكرا واتجه الى الحمام في خطى تتمايل على انغام الكرنك . تفنن أيمن وهو يلعب بدراجته ذات العجلات الثلاث في اظهار مهارته . وتعلقت هالة بجلبابه ستوقفه لتحكي له عما تقول عروستها .. ربت على خدها ثم دخل الحمام .. وزوجته تشعل وابور الجاز الان تعد له كوب الشاي بالنعناع ولن يستغرق ذلك منها وقتا طويلا . وعلى كل حال لا تزال بقع الشمس الشاحبة فوق شواشي الشجرة المواجهة للمطبخ ، والولدان جاهزان بملابس الخروج ، ويستطيع محمد أن يرتدي ملابسه الى ان يبرد الشاي ، وفي هذه الاثناء تكون هي قد تجهزت للخروج ، وتكون فسحة ظريفة على كورنيش النيل .. ستكون معجزة لو وجدنا كرسيا خاليا ولكن لا يهم .. نفترش النجيلة او نجلس على سور الكورنيش . وها هو القمر بدر ومنظره وهو وسط النيل يهتز شيء لا يوصف ، والسير فوق كوبري الجامعة متعة ،من شدة النسيم تكاد تتوقف، ومنظر حلوان عن بعد جميل ، ومن الجهة الاخرى تتلألأ أضواء شبرا ، وعند تقوس الكوبري يتوقف ايمن ويشير في فرح : شايف القلعة يا بابا ؟ شايفة ياماما ؟ وتصر هالة ان يحملها ابوها لترى هي الاخرى وتهلل .. نحمدك يا رب . محمد رجل طيب، ليس ككل الرجال، ومنذ تزوجها لا تذكر انه ضايقها يوما بلفظ . حتى التدخين اقلع عنه اكراما لخاطرها وحرصا على مطالب الاولاد . كنت مخطئة يانعيمة حين حدثته أول امس عن التليفزيون . تليفزيون ؟ انت عارفة البير وغطاه، فلم الكلام .دعك من كلام الجيران ووش السنات. راحة البال كما يقولون هي السعادة بعينها ، ومع رجل مثله ،البصلة اشهى من تحم الخروف . ابنة خالتها سعاد تقتني حتى الثلاجة وتتحدث عن شراء سيارة ومع ذلك .. لكن عيبك يا محمد يا زوجي هو الكسل .. لكن مع من ؟ اعرف أن تكاسل كيف اخرجه . زهقانة يا محمد ونفسي آخرج ، قبل ان تكمل كلامها يستعد ، وعلى الكراسي الرخامية من جهة المنيل ومياه النيل تبرق امامنا تحلو فرفزة اللب وأكل الذرة ، وينتشي ويضحك ملء شدقيه مشيرا الى الكازينو : بذمتك .. ونغد الى اذنها طرق على الباب . أرهفت السمع . وجدت أن صوت الوابور عال فهدأته . في الصالة توقفت دراجة ايمن .نظرات هالة تعلقت بالباب .صوت عبدالوهاب يرن في البيت وماء الدش ينزل فوق رأسه . بدأ يرغي الصابونه على شعره .. كذبت اذنيها وهمت ان ... لكن الدقات عادت تلح متواصلة .

ـ نعيمة .

في الوقت الذي ناداها فيه كان أيمن يفتح الباب . بصوت الطفولة وفضولها سأل من ؟ فتح الباب وجاء الجواب . تسمرت نظراته مشدوهة ووقف بلا حراك . أمه ترقب الامر عند باب المطبخ.

ـ من يا ولد ؟

لا رد . وما زالت عينا الطفل مسمرتين . هالة على بعد كاف واقفة تنظر في خوف . الام تكرر السؤال . صوت عبدالوهاب يعلو في الحاح . جرت هالة نحوها وبجريها انفكت قدما ايمن .

ـ عسكري . عسكري ياماما .

ـ عسكري ؟ خير يا بني . صحيح ؟

ـ أيوه . تعالي انت يا ماما . تعالي كلميه .

حبس ماء الدش . توقفت الصابونة فوق صدره . صاح .

ـ شوفي الحكاية يا نعيمة . عسكري !؟

ـ حاضر يا محمد (تنفسها) خير .. اللهم اجعله خير ،عسكري؟ بسم الله الرحمن الرحيم . بسم الله الرحمن الرحيم (علا الطرق بشدة اكبر) حاضر . حاضر يا شاويش . (جرت نحو الباب)حاضر. مين حضرتك ؟ (نظرت للابسها) دقيقة واحدة . حاضر . دقيقةواحدة.

ماذا تقول نعيمة للطارق ؟ ما الحكاية بالضبط ؟ صوت عبد الوهاب المزعج يمنعه من السماع .

ـ ولد يا أيمن . أقفل الراديو . اقفله .

زوجته ما تزال تتكلم : حاضر ياشاويش . بعد اذنك . آخ ! كان لازم أقول له أتفضل . (تجد نفسها في حجرة النوم) لماذا جاءت. ماذا تريد بالضبط ؟ آ .. الروب . وأين هو ؟ الصابون تسرب الى عينه . يؤلمه . وهي تقف امام الشاويش هكذا ؟ بقميص النوم ؟ والطرق يعود يلح . واين الروب ؟ الرجل ينتظر . خير . عسكري ؟ ماذا يريد ؟ ماذا فعلت يا محمد ؟ ماذا حدث ؟ خير ؟ اللهم اجعله خير . ماذا أريد من هنا ؟ خرجت . وفي المرآة لمحت نفسها . تذكرت الروب . وألصمت ضايق زوجها . ماذا جرى ؟ ماذا حدث ؟ غريبة ! عسكري !! فشل في لبس الفانلة . والسروال مصيبة . وزوجته اصابها الخرس . واين ترأها وضعت الروب . والطرق يلح من جديد . أيمن وهالة ينظران بجزع . ارتدى الجلباب على اللحم . وعند الباب الموارب ضم صدره العاري .

ـ خير يا شاويش . تفضل .

ـ سيادتك مطلوب في القسم .

ـ أنا ؟

وجدت الروب ملقى امامها . خرجت الى الصالة نحو الباب وهي لا تزال ترتديه .

ـ أيوه .

ـ خير ؟

ـ هناك تعرف .

ـ والسبب ياشاويش . طمئنا يا خويا . خير ؟

ـ يا ست والله العظيم ما اعرف . هم قالوا لي هات لنا يحيى بدوي ١٧ شارع المعاون شقة ٣ . مضبوط ؟

واحد من الشقة المجاورة يسأل :

ـ يعني انت عاوز الاستاذ يحيى .. يحيى بدوي ؟

ـ بعينه .

صوت من أعلى مع صوت من أسفل .

ـ الاستاذ يحيى عزل من سبعة اشهر ياشاويش .

ـ وانا حتى اسمي محمد كامل عبدالمقصود . هاتي له البطاقة يا نعيمة .

ـ عجيبة . عزل؟طيب وعنوانه الجديد ؟

ـ والله ما نعرف يا شاويش .
ـ حتى خذ البطاقة وتأكد بنفسك .
يتمعن فيها متشككا .
ـ يعني يحيى بدوي عزل بصحيح ؟
أصوات من فوق ومن تحت ومن حوله .
ـ أيوه . عزل من زمـان .
ـ وانت بقى .. لازم قريبه.
ـ أنا ؟ والله أبدا .
ـ ولا حتى شفناه ولا نعرفه .
ـ طيب . حيث كده ، ناخد اسمك ورقم بطاقتك ومحل عملك .
ـ والسبب يا شاويش ؟
ـ التعليمـات يا ست .

وبينمـا الشاويش يدون ما يريد ، يكتشف مواطننا محمد كامل ان النظرات من حوله ومن فوقه تتفحصه ، ويرى ان جلبابه الملتصـق بجسمه المبلل يبرز من جسمه ما ينبغي أن يستر ، ويحس برغـاوي الصابـون تملأ شعره ويتبيـن ان صدره عار فيتوارى في حرج ،ليتستر خلف بابه الى ان يقدر للامر ان ينتهـي .

شيء مقرف ، فالصابون سيعمي عينه ، وزوجته « الفالحـة » اعطته غيارا قذرا ، وهي في المطبخ غاية في الضيق ، تبحـث ايـن اختفت علبة الكبريت فالوابور قد انطفأ ، ودخـان الجاز يكاد يخنقهـا والوابور نفث حواليه نصف جازه وقد ينفجر . ومن ذا ادار الراديو المـزعـج ؟

ـ اقفلوا الراديـو يا عالم .
تصرخ زوجتـه في حدة :
ـ ولد يا أيمن يا ملعون . اقفل الراديـو.

سكتت ضجة عبدالوهاب ، فأيـن تراها وضعتها ؟ هنا ؟ لا .هنا؟ وترتطم يدها فجأة بالغلايـة فتسقط على الارض محدثة دويـا صاخبا. جرت في آخر لحظـة لكـن رذاذ الماء المغلي تناثر فوق جلد ساقيها .

أفزعه الصوت فتساءل في غضب عما حدث . ردت في سخط الا شيء ، قطيعة ! زعق محتدا :
ـ يا ست هانم الفيار وسخ .
ـ الفيار نظيف عندك . آف.
ـ يعني أنا كذاب . الفيار وسخ قلت لك .
ـ وأنا قلت لك انه نظيف يا محمـد .
هالة تصرخ باكيـة :
ـ آي يا رجلي . العروسة ياماما . أيمن كسر العروسة يابابا .
ـ انتم يا عالم . أعوذ بالله من الشيطـان الرجيم .اللهيقرفكم.

اندفعت غاضبة الى الصالة . انكمش أيمـن في الركـن بـلا حراك . اقتربت بخطوات متوعدة . رفع يده ليحمي جسده . صرخ وانهالت اللكمـات :
ـ آسف ياماما . غصب عني .

اختلط صراخه ببكاء اخته ؛ وخرج هو من الحمام ساخطا . نظر اليها نظرة متوعدة . لمح حطام العروسة فهرب الكلام من طـرف لسانه . قذف الدراجة برجله ككرة . أبعـد زوجته في غلظة . انهال على ابنه يصفعه . حالت بجسدهـا دونه فدفعها بخشونـة .تراجعت متأوهـة . تركهم ودخل حجرته ، ووسط الصرخات بدأ يرتدي ملابسه. لازم قريبك ؟ مصيبة هي ؟ سأذهب الى هناك لارى . يحيي بدوي ! لا اظنني في حياتي كلها عرفت رجلا بهذا الاسم . جائز ! زادت حـدة الصرخات . زوجته الثرثارة تبرطم . تتوعـد . افعلي ما تشائيـن . لا يمكـن ان استريح هنا يومـا واحدا . سأذهب الى جهنم بدلا مـن هنـا .

ودون ان يربط حذاءه خرج ، وعندمـا جرت خلفه هالة تتعلق به لتخرج معه ، تخلص منهـا بعنف ، فسقطت باكية ، وصفق ـ هو ـ البـاب خلفـه .

القاهـرة — زهير الشايب

دار الآداب تقدم :

رحيل المرافئ القديمة

مجموعـة قصص

غادة السمان

رؤى عجيبة لعالم واقعي واسطوري تحتل فيـه ماساة الهزيمة الحزيرانية حجرالزاوية، بذلك الاسلوب المتوتر واللغة الحية اللذين اصبحت فيهما غادة السمان نسيج وحدها في القصة العربية القصيرة

صدر حديثا — ٤٠٠ ق . ل